ـرب» بعيداً عن الكره والافتتان

أوروبا كما في الولايات المتحدة، يبدو عالم صنّاع القرار على ضفتي المحيط الأطلسي كأنّه مصاب بالانطوائية وما يرافقها من وهن الفكر ومراوحته على نحو دائري مقفول على نفسه، ما يؤدي إلى هذا الخطاب الأجوف والهُجاسي والتهجُّمي العدواني على السواء.
زد على ذلك أنّ سلام العالم ما كان أبداً بهذه الهشاشة التي نراها ماثلة فيه اليوم.
أخيراً، في خاتمة هذا المؤلَّف، حاولتُ تخيّل المخزون الهائل والمدهش من الطاقة الإبداعية الكامنة لإعادة إطلاق نهضة الثقافة والفكر في أوروبا، لو أنّها تخلّت عن الدوغمائية والتقليد المتحكمة بالخطاب الغربوي. وفي الخاتمة عينها، أشرح كيف حان الوقت لوضع حد لحرب الأفكار والمُثل والأوهام «الطوباوية»، وبخاصة عقيدة المحافظين الجدد السائدة والنيوليبرالية المسؤولتين عن الأزمة الاقتصادية والمالية التي نتخبط فيها. كذلك فإنّني أحاول أن أظهر كيف لإزالة الحواجز التي تكبّل الفكر الأوروبي، ولانعتاقه من العقائد الجامدة، ولانفتاحه على الثقافات والفلسفات الأخرى في العالم، أن تُسهم إسهاماً كبيراً في بناء عالم أفضل أو، في أية حال، أكثر استقراراً وسكينة.

مسؤولية الخُطَب الفلسفية والغيبية في قلق العالم واضطرابه

قد يصدم القارئ المجبول على هالة التعظيم والاحترام التي تحيط بأسماء كبار فلاسفة القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين وكتّابهما، إنْ هو اطّلع على المسؤولية المعزوّة إلى بعض جوانب فكرهم في تشييد فضاء ذهني، فتح الباب على مصراعيه أمام أقصى تجليات العنف الذي تكبدته الشعوب الأوروبية مرتين خلال القرن العشرين. ومن المحتمل أن تَلُمَّ الدهشة بالقراء الذين لا معرفة لهم بعالم الفلسفة القلق الذي أفرزته الثقافات الأوروبية خلال القرنين المنصرمين، إنْ هم اطّلعوا على المكانة اللافتة التي يحتلها هذا العالم، الذي يمكنه أن يبدو كأنّه بعيد كلّ البعد عن وقائع الحياة اليومية. لكن الأفكار المجردة والمفاهيم التي تشكل اللغة الفلسفية ليست أبعد ما يكون عن البراء من السلوكيات الفردية والمجتمعية. وحتى لو لم يكن المرء قارئاً لكلٍّ من هيغل وماركس ونيتشه، فإنّ رؤى هؤلاء للعالم هي التي أسهمت في صياغة إدراكاتنا الحسيّة للواقع، وما يحتويه من رهانات وتحديات، وبالتالي للسلوكيات المجتمعية والسياسية المتّبعة. فلقد كان لماركس نفسه أن عبّر بوضوح لا لبس فيه عن غزو الفلسفة للحياة اليومية في المجتمعات، والطريقة التي توسّلَتْها لتصبح «الروح الحيّة للثقافة»، يوم «دخلت المجالس ومختليات الكهنة وغرف التحرير في الصحف، وأروقة البلاطات وقلوب المعاصرين الملأى بُغضاً أو المفعمة حبّاً»؛ وهو يستحضر أيضاً «الحريق الذي أضرمته الأفكار» (3).
وفي ذلك المجتمع بالتحديد، حيث تنتشر التربية، وحيث يجد له التعليم العالي نمواً وتطوراً، تشكل الرؤى الفلسفية إلى حد بعيد نُظُمَ الإدراك الحسي للعالم التي تستحوذ على العقول. وفي الواقع، تمارس هذه النُظُم ضمناً أو جهاراً تأثيراً بالغاً على اللغات والمفردات والمصطلحات والمفاهيم المستعملة في الحياة اليومية، وعلى برامج الأحزاب السياسية وأهدافها، كما على الأدب الروائي الكبير، وبلا شك على كلّ الإنتاج الموصوف بالأكاديمي. إذ إنّ هذه النظم تؤثر أيضاً على كبار الأدباء الذين يجعلون من مؤلفاتهم الروائية ممراً لعبور هذه الرؤى إلى معيش الشخصيات الرئيسة التي يضعونها في صلب الحبكة السردية. ومن شأن هذه النظم أن تضطلع بهيكلة المناهج التربوية المدرسية والأكاديمية على السواء. فأيّ جزء من المسؤولية هو ذاك الذي يتحمله المفكرون والأدباء الذين طوروا هذه النظم الفلسفية وتلك الأنساق الميتافيزيقية الطابع التي أضفت شرعية على إثارة الأعمال العنفية وعلى إفلاتٍ مجمل الحروب الشمولية من أعنّتها، مُلهبةً القرن الماضي؟
فتطوّر الطباعة، والتربية والتعليم، والميل إلى القراءة، والنزعة إلى التبحّر في العلوم واكتساب المعرفة الموسوعية، كما إلى استكشاف القارات والمساحات الثلجية في كلّ قطبي الكرة الأرضية، وصولاً إلى قمة إفرست، وما لا يعد ولا يحصى من الترجمات بالوافر من اللغات للأعمال الأدبية والعلمية، كلّها خاصيات تميّز أوروبا منذ نهاية القرون الوسطى، وتعطي بلا ريب سعةً وغزارة وقوة للأفكار، لكن أيضاً لما يمكن أن تتضمنه من صور نمطية مسيئة وأفكار مسبقة غير منطقية. بالإضافة إلى ذلك، لا بد من الأخذ في الاعتبار النرجسيات الجماعية، وشهوات القوة والسطوة، والمصالح الاقتصادية، والمطامع المفرطة، الخاصة بأناس يجسّدون هذه النرجسيات وتلك الشهواتَ، ويشعرون بأنّ ما يمكن أن نطلق عليه اسم «القدر» ـــ لافتقارنا إلى كلمة أفضل إيفاءً بالمعنى ـ هو الذي يدفعهم إلى المضيّ قدماً في مشاريع القوة والهيمنة. ويتحمل هؤلاء قسماً كبيراً من المسؤولية في المآسي والعذابات التي يمكن الأفكار الفلسفية الكبرى أن تؤدي إليها، ما إن توضع حيّز التنفيذ في سياق المصالح والأهواء. فلا تعتقدنّ أنّ التواضع والشعور بالشك، هما من الخصال المعروفة لدى النُخب التي تقود العالم، وهي تعمل في أكثر الأحيان على إفسادها، فتحيلها إلى انتهازية عقائدية كريهة تستدعي لمواجهتها والتصدي لها، دفاعاً عنيداً متطلباً عن المبادئ العليا للأخلاق، القابلة هي الأخرى للانحلال الذي يحيلها إلى تعصّب قاهر ونزعات عدميّة مميتة.
وفي التأملات المعروضة في الفصول الرابع والخامس والسادس، أعود إلى الخطب الفلسفية والميتافيزيقية المتناقضة التي أنتجتها الثقافات الأوروبية المختلفة والتي جالت وراجت بكثافة لافتة عبر العالم. وقد تميّزت كلّ تلك الخطب لدى الفلاسفة والمؤرخين والمعنيين بالأخلاقيات والدارسين والباحثين، بخضوعها لسلطة مفهوم «الغرب» صنماً معبوداً، أو تموضعها بالنسبة إليه. تلك هي الحالة في ألمانيا، الواقعة في قلب أوروبا عينها، وهي حالة تفيض ببليغ المعنى في سياق كلامي ومَقْصِده، كذلك فإنّها تنطبق على روسيا، الأكثر طرفية من حيث موقعها الجغرافي التي أضحت مع ذلك، منذ عصر الإمبراطورة كاثرينا الثانية، قوة أوروبية سياسية وعسكرية عظمى، فانتهت إلى أن تصبح هي الأخرى، منذ القرن التاسع عشر، مجتمعاً منتجاً لرؤى ملتهبة عن العالم، أدى إلى مضاعفة تعقيد وكثافة وأهواء العواطف الفلسفية والسياسية في صميم أوروبا.
وبنحو لاواعٍ، لكي لا تهدد وحدة مفهومي أوروبا والغرب وتماسكهما، فإنّ التقاليد التوصيفية في تأريخ الأفكار في أوروبا، أو أيضاً تلك العائدة إلى الأدب، قد تمترست في تصنيفات عامة ومجردة للغاية أو تسميات مبسطة لا تعبّر عن تعقيدات وتناقضات صدام الأفكار الفلسفية والسياسية في أوروبا. تلك هي الحال فعلاً، عندما يُقسَم تطور الفلسفة إلى حِقبة كلاسيكية، تتبعها حقبة الحداثة ثم حقبة ما بعد الحداثة، أو عندما يصنّف التطور الأدبي في حقب كيفيّة اعتباطية، مجردة في تعريفها، كمثل الكلاسيكية ثم الرومانسية ثم الحداثة، أو كذلك وفاقاً للأنواع المختلفة المندرجة في كل من الشعر والمسرح والرواية والبحث.
ويفتقر مفهوم الحداثة عينه إلى الملاءمة والتماسك. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ كلّ واحدة من الحقب المذكورة أعلاه قد عرفت نزاعاً بين القدماء والمحدثِين. غير أنّ مفهوم الحداثة ما لبث هو نفسه أن أصبح مرادفاً لمفهوم الغرب، بحيث أنّ الأول يُقبل على دعم المحتوى الأسطوري للثاني؛ فهل من الممكن تصوّر حداثة غير تلك التي أنتجها الغرب، أو تلك التي يستطيع أن يُلْهمها في أي مكان آخر؟ وعندما تظهر التأثيرات الضارّة للحداثة خارج أوروبا، فهي تنسب إلى «بربرية» همجية غريبة عن الغرب، إذ نادراً ما يقام الرابط التشبيهي أو المقارَن بين الأوضاع الجغرافية والظروف التاريخية ـــ وهي بالتأكيد مختلفة، ومن شأنها أن تخضع لديناميات القسوة الدموية نفسها التي كان للقارة الأوروبية أن عرفتها في تاريخها.
وعلى هذا الأساس، فإنّ هذه الرحلة الطويلة التي نستهلّها ها هنا في صلب التاريخ الأوروبي، كما في تاريخ الأفكار والنُّظم الفلسفية التي تواكب اضطرابات هذا التاريخ وانقلاباته، إنما هي تستهدف فتح الباب أمام تفكيك بنية الجوانب المختلفة لأسطورة الغرب. فلقد كان لـ«الحداثة» الأوروبية أن شيّدت منذ أعمال الفيلسوف الألماني هيغل، كبرى نُظُم الإدراك الحسي للعالم حول هذا المفهوم الرئيس بالتحديد. من هنا، كان من الضروري الانكباب، ليس على تحليل الظروف التي شهدت انبثاقه وبروزه فقط، بل أيضاً على تفحّص ماهيّة التطرّف الذي يمكن أن يؤدي إليه، عندما يفقد منشأه الجغرافي، ليتحوّل إلى آلة عمياء تُعنى بإنتاج الهويات، وإلى مواقف فكرية مسبقة ودوغمائية الطابع.
من خلال هذا التفكيك لكبريات الاختزالات التاريخية وللنُّظُم الفلسفية التي ولّدتها، يُظهر هذا المؤلَّف في منظور جديد الأسباب التي أدت إلى التموضع المركزي لهذه القارة الصغيرة، وهو واقع يستحيل تجاهله في تطور البشرية منذ القرن السادس عشر. فعندما تحطم شعوب أوروبية متنوّعة الحواجز التي تعوق تحركيّتها لتنتشر في كلّ القارات الأخرى، بأشكال وبإملاء

> أي جزء من المسؤولية يتحمله المفكرون الذين طوروا النظم الفلسفية التي أضفت شرعية على إثارة الأعمال العنفية

من دوافع مختلفة، لا يعود هذا التاريخ مجرد تاريخ يسرد ببساطة للغزوات والاحتلالات الاستعمارية البالغة القسوة والدموية، ولا مجرد تاريخ يعرض للإمبريالية التوسعية، ولا تاريخاً يختص بقارة قامت مقام «المنار» الهادي فحملت، عبر أريحيّة مترفّعة عن الأغراض والمنافع الخاصة، التقدم التقني والأيديولوجية الإنسانوية إلى ما بقي من بقاع العالم. زد على ذلك أنّ الذي يريد شرح التحولات التي خضعت لها كل القارات الأخرى منذ نهاية القرن الخامس عشر، لا يستطيع أن يقتصد في المقال فيمتنع عن استذكار الطابع الفتّاك لتلك النزاعات العسكرية والفلسفية التي نشبت داخل أوروبا، والتي أدت دوراً رئيسياً في دينامية تدخلات الأوروبيين العسكرية والعلمية والثقافية والدينية في جهات العالم الأربع.

تاريخ أوروبا وتاريخ العالم

جراء توسّعها العالمي، كان لكلّ من جَيَشان أوروبا، ورغبتها في الوصول إلى الفكر الكوني، ونماذجها السياسية المختلفة، وأمزجتها وأنماطها الفلسفية المتغيّرة، وأيديولوجيتها الشغوفة والملتهبة والمتناقضة، أن جعلها صعبة الاجتناب إنْ نحن شئنا إدراك ما حصل في الأقسام الأخرى من العالم، وفهم ماهيّة ذاك الذي يستمر بإثارة خواطرنا وأقضّ مضاجعنا. فمنذ عدّة قرون، يشرح تاريخ أوروبا تاريخ القارتين الأميركيتين، كما تاريخ القارة الأفريقية، وتاريخ كلّ من اليابان والصين والهند وفييتنام وروسيا وإيران والسلطة العثمانية البائدة وتاريخ تركيا الحديثة التي انبثقت منها، بالإضافة إلى تاريخ مقاطعاتها العربية القديمة، التي تحوّلت إلى دول جديدة في ختام الحرب العالمية الأولى. ويشرح تاريخ أوروبا أيضاً ماهيّة الدوافع الكامنة وراء إنشاء دولة إسرائيل والدينامية التي تحكّمت به.
وباستطاعتنا أن نضاعف من الأمثلة على التأثير الأوروبي الذي جال في كلّ مكان من العالم تقريباً، سواء اعتمد المسار العسكري أم المسار السلمي، على المستوى الفكري كما على المستوى الأدبي والفني. فما من شيء في العالم إلا تأثر بأوروبا، وبخاصة عندما كان هذا التأثير يتوسّل الطرق المختلفة التي اعتمدها الأوروبيون في سردهم لتاريخ العالم كما سردهم أيضاً لتاريخهم وشرح عبقريتهم، ونجاحاتهم وإخفاقاتهم، وباختصار كلّ ما عدّوه قدرهم الاستثنائي في التاريخ الكوني.
وفي الواقع، كانت أوروبا استثنائية في تاريخها الخاص كما في إشعاعها ونفوذها العالميين اللذين تميّزهما المظاهر المتعددة. ومن جهة أخرى استثارت هي القَدْر نفسه من الإعجاب والكراهية حيثما حلّت، فأشعرت الآخرين بوجودها. وفي أكثر الأحوال، سبّبت أوروبا الحروب الأهلية وتلك الفلسفية، أكانت علنية أم خفيّة صامتة، في المجتمعات حيث استُشْعِر بنفوذها وتأثيرها. فهل لا تزال أوروبا اليوم قارة صعبة التجاهل؟ ألا تزال واحداً من المحركات المهمة في تاريخ العالم؟ وهل، بعد الإخفاقات المدوّية التي آلت إليها محاولات التوحيد ومساعي المجانسة سواء بقوة السلاح أو بقوة الأفكار، وفي أغلب الأحوال، بالقوتين معاً، تتوصل إلى تحقيق النجاح، من خلال دينامية سوق اقتصادية مشتركة، وعبر المغامرة الجديدة التي تسعى فيها إلى توحيد هذه القارة سلمياً؟ أستستمر في قيامها مقام الأنموذج ـ المصدر، ذاك الأنموذج السياسي والفلسفي والثقافي الذي يؤثر في ما بقي من العالم، علماً بأنّ بعضهم أطروا عليه فرفعوه إلى الأوْج وجعلوا منه مثالاً يحتذى، فيما طاله آخرون بالقدح والذمّ، في أوروبا كما خارجها، إذ إنّه كان بالفعل أنموذجاً أساسياً لمفهوم الحداثة، و«الحضارة» والتقدم، والرقيّ، والإنسانويّة.
وفي ظل هذا الأنموذج ـ المثال حسب مفهوم ماكس فيبير، عرف الأوروبيون انفجارات عنف بركانية الطابع ينبغي إدراك مسبباتها المعقدة: من إبادة شعوب القارة الأميركية إلى المحرقة اليهودية، مروراً بالاسترقاقٍ والاستغلال والاضطهاد الاستعماري، وصولاً إلى التفلّت العنيف للأهواء القومية والأيديولوجية بين الأوروبيين أنفسهم. ولا بد هنا من الإشارة إلى التلازم الحاصل بين الأعمال العنفيّة التي كبّدها الأوروبيون بعضهم لبعض، وتلك التي مارسوها بحق غيرهم من الشعوب. فالحروب الصليبية التي استهلّت بالفتنة ضد يهود أوروبا لن تلبث أن تلحق بحرب المئة عام، وأهوال قمع الأنواع المختلفة من الهرطقة الدينية، وفظائع الحروب بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين التي لا تقل خطورة ولا استطالة، والحروب التي قادها لويس الرابع عشر، وحروب الثورة الفرنسية، ثم حروب نابوليون، والمجازر القومية التي اصطخبت بها الحرب العالمية الأولى، التي كانت أوروبية في جوهرها ـ وأخيراً الحروب القومية والعرقية والأيديولوجية التي استشرت خلال الحرب العالمية الثانية، وهي التي اتخذت لها على الدوام من أوروبا حيّزاً مركزياً. وتجدر الإشارة بالتالي إلى أنّ الوحشية هذه قد مارسها الأوروبيون بادئ ذي بدء على أنفسهم ◄